مقاربة سوسيولوجية لِلَّعِب بين الأجداد و الأحفاد

أ. بوشناق خدوجة
أستاذة مساعدة
قسم علم الاجتماع والديموغرافيا
جامعة الجزائر 2

ملخص الدراسة :
على اعتبار أن عملية التنشئة الاجتماعية هي سيرورة يتدخل فيها عناصر عديدة،يُدرج الأجداد و الجدات ضمن هذه العناصر داخل مؤسسة الأسرة ، و قد يكوِن اللَعِب أحد النشاطات الثقافية التي يعاد إنتاجها في حلقة الاتصال مع الأحفاد.
ولعل أحد الأفكار المهمة التي يحاول هذا المقال مناقشتها هو ذلك التحول في علاقة الأجداد بأحفادهم ، ومن ثم ذلك التحول على مستوى ممارسات اللَعب و إنتاج أنماط جديدة له تدخل فيما يسمى ألعاب العنف والخطر.
الكلمات المفتاحية :التنشئة الاجتماعية–الرأسمال الثقافي– دور الجد والجدة– الأحفاد– اللَعب– الألعاب العنيفة والخطرة.

تمهيد:

تعتبر علاقة الأجداد والجدات بالأحفاد من أهم العلاقات الاجتماعية بعد علاقة الآباء والامهات بأبنائهم ،ذلك لما لها من آثار إيجابية في حياة الطرفين .

ولعل سمة التواصل والامتداد التي كثيرا ما تطبعها عملية نقل التراث الاجتماعي بما يحتويه من قيم وآداب وعادات وتقاليد ورموز، هي السمة الاساسية التي تهمنا في هذه العلاقة ببعدها الاجتماعي، دون أن نتجاهل طبعا البعد النفسي و الوجداني.

وفي هذا السياق يعتبر اللعب كنشاط حر غير إجباري هو جزء من هذا التراث الاجتماعي الذي يعمل الكبار على نقله ليعيد انتاجه الصغار مع عملية تكييفه بما يناسب ظروفهم و احتياجاتهم، وحتى مدى تقدم بيئتهم الطبيعية و الاجتماعية.

و بما أن هذا اللعب هو ذلك النشاط الذي يحقق المتعة و السعادة للأطفال وحتى الكبار رغم اختلافه من حيث الزمان و المكان، فإنه يعد خبرة رئيسية لنمو الطفل في مختلف نواحي شخصيته من جهة، ومن جهة أخرى يعد نشاطا يمكن الاجداد و الجدات من الدخول في علاقة تواصل بناءة تبعدهم عن الوحدة و اليأس و العزلة بما يُخلق لهم من شèعور الطمأنينة والرضا ، للمساهمة الفعالة في عملية التربية بذلك الرصيد الكثير من الخبرة و التجربة، والكمية القليلة من الضغوطات اليومية.

من هنا جاءت محاولتنا في هذا المقال للاقتراب من هذه العلاقة في سياق نشاط اللعب ومحاولة مناقشة أوجه التشابه و الاختلاف بحسب متغيرات مختلفة ،كمتغير الزمان والمكان ومتغير نمط الاسرة بتقديم قراءة سوسيولوجية لبعض الجوانب التي تستحق أن يخوض البحث فيها.

1- مفهوم الجد والجدة وأدوارهما:

إن اختيارنا لمفهومي الأجداد والأحفاد وعلاقتهما ببعضهما البعض يقترب أكثر من مفهوم الكبار والصغار، ولا نجدهما يعبران تماما عن علاقة الشيخوخة والطفولة أو المراهقة والشباب. ذلك لأن مفهوم الجد والجدة والحفيد والحفيدة يبتعد في اقترابنا عن ذلك التحديد الزمني للشرائح والتميز البيولوجي العمري. لأننا ندرك تماما بأنه من الضروري جدا أن ننظر إلى دور ومكانة الجد والجدة على أنهما وضعيات يجد الفرد نفسه فيها بمجرّد أن يتواجد الحفيد وبذلك

نتأكد فكرة أن الحفيد هو الذي يخلق دور الجد والجدة في وسط الأسرة بعيدا كل البعد عن مفهوم الشيخوخة الزمني.

إن التغير الاجتماعي أثبت بأن الأفراد إن كانوا في زمان غير بعيد يعيشون دور الجد والجدة في سن الخامس والثلاثون والأربعون، فإن الواقع حاليا يثبت بأن العديد من الأفراد في زماننا لم يتقلدوا دور الأب والأم في هذا السن، نتيجة عوامل عديدة أهمها: تأخر سن الزواج بسبب ارتفاع مستوى الدراسة، البطالة، وعدم القدرة على تلبية متطلبات الزواج كالسكن.

وبالتالي يبدو لنا جليا بأن مفهوم الجد والجدة هو مفهوم مرتبط بكيان نفسي واجتماعي، لا بكيان بيولوجي عمري، لكون متغير السن بحد ذاته مرتبط بمرحلة من مراحل نمو الإنسان ومرتبط كذلك بثقافة إنتقال فيصبح قطعة اجتماعية تتأثر بكل ما نفخ فيها المجتمع من قيم وعادات وتقاليد وتصورات.

نشير إلى أن هذا لا يمنع من تمييز إختلاف علاقة أجداد وجدات سن الخمسون والستون بالأحفاد والحفيدات عن علاقة أجداد وجدات سن الثمانون والتسعون بأحفادهم بما تتميز العلاقة من إختلافات عميقة في تلك النشاطات التي يمكن للطرفين القيام بها.

وعلى هذا الأساس، نصل إلى فكرة أن دور الجد والجدة هو مثله مثل كل الأدوار نمط من الفعل المتوقع، وهو جانب من البنية الاجتماعية والسلوك الفردي المنتظر من طرف الأفراد في وضعيات إجتماعية معطاة ومحدد من خلال المعايير الاجتماعية والثقافية .

وبالرغم من أن مفهوم الأجداد والجدات لا يرتبط بسن بيولوجي وعمري إلا أن الثمتلاث الإجتماعية للأفراد حول المفهوم تربطها دائما بكبار السن والشيخوخة، والتسمية الفرنسية Grands parents، تدل على هذه الثمثلات، وتقابلها في مجتمعنا الجزائري تسميات كثيرة، كلها تستقي مدلولها من ثقافة معينة وقيم قديمة أو جديدة في المجتمع فنجد: جدي وجدة، جدي وماني، أو جديس وحبو أو عزوزو (من العزيزة). بابا ومم أو مم كبيرة، بابا ويم لأبناء بابا وماما أو أمي وأبي، جدي ولالة، بابي ومامي...

الأجداد	الجدات
جَدِي	جَدَاتي
جديس	جَدَّة
بابا	ماني
فافاvava، فافا أمغار	لالَّة
سيدي	حَبُو hapou.
زيزي	ستي séti
دادِي، ديدي	عزوزو(من العزيزة)
دَادَا	نَنَّة
بابا سيدي	يَمَ، مَمَّ، مَمَّ لكبيرة
بابا سيدو	أمَّاني
بابيpapy	مامي
...	...

الجدول :يبين مختلف أنواع المناداة للأجداد و الجدات في المجتمع الجزائري (القائمة مفتوحة).

ومهما اختلفت التسميات بحسب البيئة الاجتماعية و الثقافات فإننا نجد لهؤلاء الأجداد والجدات دورا مماثلا .

فيا ترى ما هو هذا الدور في وسط الأسرة؟

يعتبر الأجداد والجدات منبع التراث الثقافي ومطمورة الكلام التي يمكن للحفيد والحفيدة التنشِئة عليها، وهم يمثلون الدعم العاطفي الذي لا يمكن الاستغناء عنه بالموازاة مع دور الأب والأم ولهذا يمكن أن نستخلص أهم الأدوار التي يلعبونها وهي:

أ- تمثيل الرابط العاطفي والتربوي:

يمكن للأجداد والجدات أن يلعبوا دور هذا الرابط في المرتبة الثانية بعد الآباء والأمهات لما لهم من مزيد من وقت فراغ، وضغوطات أقل و وتيرة حياة أكثر هدوء وطمأنينة، هنا تقل قابليتهم للعقاب ويزيد بالموازاة حبهما للملاطفة والحنان والعطف والملاعبة وتقديم الهدايا. فيزيد تعلق الأحفاد بهم نظرا لما يمكن تعلمه في جو بعيد كل البعد عن جو الأمر والنهي والتعصب.

إن الجد والجدة بإيلائهم أهميته أكثر للأحفاد يبنون جسر تواصل بينهم يجعلهم مقربين أكثر في نشاطات ترفيهية تربوية يومية كسرد قصص الماضي، اللعب، التنزه.

لكن هذا لا يمنع أنه في كثير من الأحيان ينصدم دور الجد والجدة بدور الأب والأم من خلال صراعات الأجيال فيما يخص نظرتهما للحياة وطرق التربية المتناقضة، فيكون القاسم المشترك بين جيلين هو الحفيد والحفيدة، وربما كان هذا القاسم المشترك يلعب دور الوسيط ما بين الجيلين، فيزيل الشوائب ويذيب الجليد.هذا من جهة ، و من جهة أخرى فإن "دور الأجداد على مستوى الأسر المعاد تكوينها بسبب الطلاق مثلا،قد تطور و أصبح يجسد دعما معنويا قويا لكل الأطراف ،بالإضافة إلى أنه يسمح(بترقيع) نسيج الروابط و ضمان استمرار العلاقات ،بالرغم من الانفصال"[1].

ب- تمثيل المرجعية التربوية والثقافية:

إن وجود الجد والجدة في حياة الأحفاد يمكنهما من ترسيخ جذورهما لكون الأجداد حاملي للماضي وتاريخ العائلة فنجدهم يملكون ذاكرة كل أفراد العائلة العريقة ومحتفظين بالصور والأواني والأثاث، والبيت بالنسبة للبعض الآخر، وبوجود الجد والجدة يدرك الأحفاد بأنهم ورثة العائلة ماديا ومعنويا بل أكثر من هذا فهم ورثة تاريخ عائلي وذاكرة جماعية (من أبسطها كطرق الطبخ و التنظيف والخياطة وجني الثمار... إلى أعقدها كالحوادث المؤلمة و النزاعات و الصراعات

[1] بتصرف من:

Centre d'analyse stratégique : « **La grand-parentalité active** ».**Question social** .Novembre2010.N 199.(www.stratégie.gouv.fr).p4

والحروب...).بالإضافة إلى أسرار العائلة كإرث "لا يتم التعبير عنه شفهيا و لكن يتم التعبير عنه و نقله بقصص دون كلمات "[1]

وجود الجد والجدة يمكِن كل الأحفاد والحفيدات من آباء وأمهات مختلفة من الالتقاء تحت سقف واحد، فيتعرف أبناء العم بأبناء العمة وأبناء الخال بأبناء الخالة. فيتمثل الحفيد والحفيدة مكانته في وسط العائلة الكبرى، ويسجل وضعيته ضمن المجموعة الكاملة تهيكل "الشجرة العائلية".

وجودهم كذلك في حياة الأحفاد يحافظ على الدور السيكو إجتماعي تربوي الهام الذي "يلعب دور هيكلة الطفل و المتمثل في رمز ديمومة القانون المتجسد في انتقال الثقافة و اللغة ، و المتنقل عبر الأجيال التي خضعت له تماما مثلما خضع له الآباء، و سوف يغرس في ذهنية الصغار،ضرورة الخضوع له و احترامه"[2]

من خلال هذا يمكننا أن نستخلص مكانة الأجداد والجدات لدى الأحفاد والحفيدات بكونهم الرءوفون، العطوفون الذين لا يعاقبون ويتقاسمون النشاطات المختلفة معهم، كما أنهم يمثلون حاملي ميراث الماضي وناقليه ويقدمون إمكانية تواصل الكبار بالصغار(Grands parentsوPetits enfants)،و نسج رابطة إجتماعية ذات نوعية مختلفة، دون تدخل سلطوي ،وبمعنى آخر هم يمثلون تلك الصورة الأبوية المثالية التي كثيرا ما يبحث عنها الأحفاد في آبائهم ولا يجدونها بسبب ما تمليه مسؤولية التربية والضغوطات اليومية.والمثل الشعبي المشهور الذي مفاده **"عز الولد ،ولد الولد"** يؤكد قوة الرابطة.

[1] بتصرف من

Mireille Galtier et Jacque Besson :**Hériter** ,**transmettre**.les dossier de spirale.ed eres.2008.(www.edition-eres.com) .

[2] Jack Messy :**Role social et familial des grands-parents** .Espaces formations.(www.espacesformation.fr).

2- نشاط اللَعِب بين الأجداد والأحفاد في سياق التغير الإجتماعي:

يتمتع الأجداد والجدات بعلاقة قوية جدا مع أحفادهم على الرغم من الإعتقاد السائد بأن روابط الأسرة قد تهشمت في العقود الأخيرة من جهة، ومن جهة أخرى عدم عيش الأحفاد تحت سقف واحد مع أجدادهم بسبب تحول الأسرة الممتدة إلى أسرة نووية.

إن التواصل أصبح يأخذ أساليب مختلفة كالتحدث على الهاتف، الأنترنيت، تناول الطعام معا في مناسبات كثيرة، شراء الهدايا، العناية بالأحفاد في بعض فترات النهار، قضاء عطلة نهاية الأسبوع معا، قضاء العطلة في بيت الجد والجدة أو العكس.و قد تتأكد فكرة مساعدة الأجداد في التربية "كتضامن بين الأجيال الأكثر انتظاما"[1]

ورغم أن أساليب التواصل مازالت قائمة إلا أننا لا نغفل على إنخفاض فترات التواصل التي كثيرا ما تكون جسرا للتوارث الثقافي. وبهذا الإنخفاض تقل حظوظ الطفل في الإستزادة من مطمورة الكلام والتاريخ.

ولعل المشاكل التي نلاحظها في وقتنا الحالي ماهي إلا وليدة نقص في عملية الإنتقالTransmission.ومنه نقص على مستوى الاعتراف بالقيم نتيجة (التغييب)أو الغياب المادي للأجداد"[2]

إن الجد والجدة بميزتهما المِعطاءة يمثلون أحسن المرافقين والأصدقاء لأحفادهم بما يقدمونه من مشورة وسرد حكايات الماضي والتحدث عن زلات الآباء، والتركيز على الأخلاق العالية والصدق والمسؤولية.

إن هذه الرعاية المجانية التي يوفرها الأجداد لأحفادهم بمثابة المدرسة الثقافية التي لا مثيل لها وحتى إن غابت، تمثلها في ذهنية الأحفاد من خلال الصور وأحاديث الآباء عن أبائهم يشكل للأحفاد مرجعيه مقدسة.

لكننا رغم هذا لا ننفي ما يمكن للأحفاد إفتقاده بافتقاد أجدادهم سواء من خلال البعد عنهم أو عدم الإحتكاك المستمر معهم. إذ أصبح الأحفاد يكونون علاقات أوسع في فضاءات إجتماعية مختلفة ،من شأنها أن تقدم لهم معارف جديدة و دائمة التجديد (كالقنوات

[1] Centre d'analyse stratégique :op.cit.p2.

[2]Jack Messy :op.cit

التلفزيونية المتنوعة ، و الانترنت،...)و بذا لم يصبح الأجداد مصدر معلومات خَفِيَة أو بعيدة المنال كالسابق. و في كثير من الأحيان يتعلم الأجداد من الأحفاد كل ما يتعلق بالتكنولوجيات الحديثة، فيدخلا في مناقشات حادة يطبعها النشاط و الخِفة و غزارة المعلومة من طرف الصغار من جهة، و الرصانة و الحِلم و تجربة الحياة من طرف الكبار من جهة أخرى.

و بهذا يمكننا أن نتفطن بأن دور الأجداد لم يصبح مثله ،مثل أدوار أخرى مرتبط بالمفهوم القديم للتربية التي يقرها "إميل دركايم" على أنها التأثير الذي تمارسه الاجيال السابقة على تلك التي لم تتهيأ بعد للحياة الاجتماعية، و إنما أصبح الدور مرتبط في حد ذاته **بسيرورة متبادلة.**

لابد لنا أن نعي بأننا أصبحنا نعيش في مجتمع يؤسس ل"تنشئة صغار نامية عن طريق الأنترنت و وسائل الإعلام، لذا لابد أن نفهم بأن الأطفال و المراهقين يبنون شخصيتهم في فضاءات و مجتمعات يغيب فيها الكبار...فيصبحون بذلك منتجين لقطع ثقافية "[1] .و هي وضعية جديدة ينتجها في اعتقادنا سببين ،أولهما هو أن مجيء الجيل الثالث إلى الحياة يشكل في حد ذاته تحولا عميقا داخل الأسرة،و أن يصبح الفرد جدا أو جدة، هو بلا شك أحد أهم الأحداث المرضية. و ثانيها هو أنه في "هذا السياق الجديد الذي لا يسهل عملية التواصل و تلبية مطالب الأسرة وفقا للتوقعات المرجوة يخلق للأجداد دورا جديدا لتأديته و الذي "يتمثل في النقل Transmettre عوض المساعدة، والإدلاء بالشهادة عن الماضي Témoignerعوض التربية. و قد

لعل إفتقاد الحفيد لجل النشاطات الترفيهية التي يمكنه القيام بها مع أجداده ضمن ما يميز علاقة الأجداد بأحفادهم في خضم تغيرات البنية الأسرية ، ودخول أحدث الوسائل التكنلوجية في مجتمعنا.

واللَعب هو نشاط مهم ضمن هذه النشاطات الترفيهية التي كان الطفل يتوارثها من أجداده ضمن كل الميراث المتوارث لينقله بدوره إلى أجيال قادمة .إذ نجد بأن الطفل قديما كان

[1]Francoise Cochet :**Jeu du foulard et autres jeux d'évanouissement .Pratiques, conséquences et prévention**.l'Harmattan.paris.2010.p60.

دائما مرافقا لجدته وجده في أكبر غرفة مخصصة لهما وهو بتواجدهفي أكبر مجال وأحسنه في البيت العائلي،يمكنه الدخول في علاقة تبادل مستمر تضفي البهجة والإنبساط للطرفين وترفع من نسبة التوافق الأسري والتوازن داخل الأسرة.

فيتعلم الطفل كيف يلعب و يلهو ،ومع من يلعب،و يتعلم الكلام والغناء، بالإضافة إلى القصص و الحكايات البطولية و الأساطير الخرافية ،ناهيك عن الأمثال و الألغاز و الأحاجي .ويحتك مع كل الزائرين والضيوف فتتوسع شبكة علاقاته و تزداد فرص تفاعله الإجتماعي، ليس سوى لأنه رفيق الجد والجدة ولأنه سرعان ما يبعد عن أبيه وأمه في مضجعه.فتتحقق بهذا "التنشئة الاجتماعية على أساس أنها سيرورة من خلالها يتعلم الفرد و يستنبط طوال حياته، العناصر السوسيوثقافية لمحيطه و يدمجها في بنية شخصيته، تحت تأثير التجارب و العناصر الاجتماعية، ومن ثم يتكيف مع المحيط الاجتماعي الذي سوف يعيش فيه"[1]

فتتوارث بهذه الطريقة ،الألعاب التقليدية .وتتوارث معها كل المهارات، المتمثلة في :

المهارات الحركية العالمية الكبرى: كالجري والتنسيق والسحب والدفع.

و**المهارات الحركية الدقيقة**: كالقبض (التلوين، الرسم).

و**المهارات الإجتماعية**: كالتناوب والتقاسم، والتعاون وإتخاذ المبادرة.

و**المهارات اللغوية**: كالإستماع والغناء وإعادة رواية القصص.

و**مهارات التفكير**: كالبحث والتخطيط، وبناء العلاقات وحل المشاكل.

ويزداد مجال التعلم باللعب وفعاليته باحتكاك الأحفاد والحفيدات من آباء وأمهات مختلفة (أبناء الأعمام والعمات، والخالات والأخوال).فتقوى الروابط الأسرية وينصهر الأحفاد في ثقافة واحدة يسودها الإحساس بالإنتماء إلى شجرة عائلية واحدة.

إن غياب هذا السياق التعلمي التنشئوي للطفل يجعله يعيش فراغا ثقافيا في إطار تنشئته الإجتماعية، وبما أن الطبيعة ترفض الفراغ فإن الطفل بعدم توارثه نفس الألعاب التقليدية القديمة ،أصبح يُنتِج لنفسه ألعابا جديدة، تعبر عن المجتمع الذي نشأ فيه بكل ما يحمل من صور عنفوية.

[1]- Guy Rocher : **Introduction à la sociologie générale** .Paris .seuil.1970.

ذلك لأن اللَعِب هو النشاط الطبيعي لدى الطفل، بينما اللعبة وقواعدها هي ميراث إجتماعي ثقافي، ولما يغيب الميراث أو تغيب جسور توريثه عن طريق الأجداد والجدات خصوصا- بسبب تدخل متغيرات كثيرة أهمها الثورة في البنية الإجتماعية والذهنيات- ينتج الطفل ألعابه من خلال كل الرموز التي يتلقاها من تنشئته الإجتماعية المتغيرة ومن خلال إحتكاكه بجماعات مختلفة خارج الأسرة.

ولعل إنتاج الطفل والمراهق على السواء، لأنماط جديدة من اللعِب ذو الصبغة العنيفة ، ما هو سوى محاولة لسد الفراغ الذي نتج من عدم القدرة على إعادة إنتاج تلك الانماط القديمة من الألعاب. والتي أصبحت حِكرًا على الذاكرة فقط.

خلاصة:

بالرغم من أن جزئيات الواقع الذي نعيشه ،تؤكد فكرة توجه مجتمعنا إلى الحداثة، بالإستناد إلى تلك المؤشرات الملاحظة،كتغير البنية الأسرية والذهنية التي تهيكلها سواء في تربية الأطفال، ومشروع زواجهم،...

وبالرغم من أن تواجد الأحفاد الدائم مع الأجداد إنخفضت وتيرته بسبب عدم العيش تحت سقف واحد، وعدم قدرتهم على التدخل المتكرر في التربية، إلا أن دور الجد والجدة مازال يفرض أثره، ولازالت العلاقة تفرض قدسيتها في المخيال الاجتماعي .لا لسبب سوى لأن مجتمعنا مازال يهيكل علاقاته الإجتماعية بطريقة تقليدية.

وحتى وإن غيب دور الكبار في بعض الأحيان إلا أننا مازلنا نستشعر فكرة "بركتهم"، المستوحاة من عمق الثقافة المحافظة.

لكن استنتاجنا هذا لا يغيب من جهة أخرى فكرة عدم إمكانية أجداد وجدات الحاضر من نقل ميراث اللعِب ،لإعادة إنتاج نفس أنماط الألعاب التقليدية من طرف الجيل الذي يهيأ لممارسة حياته الاجتماعية بسبب منافسة عناصر جديدة في التربية، و منافسة المجال الإفتراضي للمجال الإجتماعي الذي يعيش فيه الأفراد.

قائمة المراجع :

1- Rocher (Guy) : **Introduction à la sociologie générale** .Paris .seuil.1970 .

2-Centre d'analyse stratégique : **« La grand-parentalité active » .Question social** .Novembre2010.N 199.(www.stratégie.gouv.fr).

3- Galtier (Mireille) et Besson(Jacque) :**Hériter ,transmettre**. les dossier de spirale.ed eres.2008.(www.edition-eres.com) .

Messy (Jack) :**Role social et familial des grands-parents** .Espaces formations.(www.espacesformation.fr).

Cochet (Françoise) :**Jeu du foulard et autres jeux d'évanouissement .Pratiques, conséquences et prévention**. le Harmattan. Paris.